

التفسير المطول - سورة الأعراف ٠٠٧ - الدرس (٠٣-٦٠): تفسير الآيات ٤ - ٧
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٢-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .
أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة ، وهي قوله تعالى :

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

(سورة الأعراف: ٤)

مسائل لغوية متعلقة بالآية : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

١. (كَمْ) الاستفهامية ، و (كَمْ) الخبرية :

أيها الإخوة ، نحتاج أحياناً لشرح الآيات إلى بعض قواعد اللغة ، كم في اللغة على نوعين ، تأتي كم استفهامية ، وتأتي كم تكثيرية ، أو خبرية ، فإذا سألتُ : كم كتاباً قرأتَ ؟ يقول لي : خمسة كتب ، هذه كم استفهامية ، أما إذا كان الذي أمامي قد قرأ كتاباً لا تعد ولا تحصى ، يقول لي : كم كتابٍ قرأتُ ، هذه كم خبرية ، أو تكثيرية ، إذا كان



الشيء يعدّ يذكر العدد ، فإن كان لا يعدّ تأتي كم التكثيرية أو كم الخبرية .

فإنه عز وجل لأنه رب العالمين ، لأنه خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة ، فإذا ضل الإنسان عن طريق سعادته ، وسلامته ساق الله له من الشدائد ما يحمله على التوبة .
وقد بينت في دروس سابقة كيف أن الله سبحانه وتعالى يتوب على عباده ليتوب عليهم ، أن يسوق لهم بعض الشدائد ليحملهم بها على التوبة ، أو يتوبون فيتوب عليهم أي يقبل توبتهم .

٢ . المجاز في قوله : من قرية :

إذاً

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾

وعندنا في اللغة أيضاً ما يسمى في المجاز ، فأحياناً يقول الله عز وجل :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾

(سورة يوسف الآية : ٨٢)



القرية مكان ، والقرية جماد ، والقرية غير عاقلة ، والقرية لا تجيب ، أي أسأل أهل القرية ، ونقول أحياناً في بلاغتنا اليومية : اجتمع مجلس الوزراء ، المجلس هو الكرسي ، هل يعقل أن تجتمع مقاعد الوزراء وتتخذ قرارات؟! المقصود بالمجلس من على الكرسي ، هذا اسمه مجاز عقلي ، قد يعبر عن صاحب المكان بالمكان ، وقد يعبر عن الكل بالجزء ، وقد يعبر عن الجزء بالكل .

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٩)

لا تدخل .

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٩)

ذكر الكل وأراد الإصبع الواحد ، الكل يحل محل الجزء ، والجزء يحل محل الكل ، والمكان محل السكان ، وهكذا ، هذا اسمه مجاز عقلي ، والكناية فرع من المجاز العقلي .
مثلاً :

وإذا المنية أنشبت أظفارها

المنية ليس لها أظافر .

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

شُبّهت المنية بإنسان ، وحذف الإنسان ، وبقي بعض لوزامه ، أو شُبّهت المنية بوحش ، وحذف الوحش ، وبقي بعض لوزامه ، وهو إنشَاب الأظافر ، هذا بحث في البلاغة يطول في المجاز العقلي والكنائية .

إذا :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾

أي كم من أهل قرية أهلكتها .

فَجَاءَهَا بِأَسْنًا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ

١ - مَلْحٌ لَطِيفٌ فِي الْآيَةِ :

أيها الإخوة ، في القرآن ملح دقيق جداً ، أهلكتها وانتهى الأمر ، قال :

﴿ فَجَاءَهَا بِأَسْنًا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

أي لم تهلك بعد ، كيف نوفق في الآية بين :

﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾

والفعل ماضي ؟ ثم يقول الله عز وجل

﴿ فَجَاءَهَا بِأَسْنًا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

هناك ملح دقيق جداً في هذه الآية ، حينما ترى مصيبة قد وقعت سأوضح لك الحقيقة بالمثل التالي :

هناك موظف حامت حوله الشبهات ، صار حوله لغط كثير ، هناك من يقول : يأخذ مالاً ليس له ، أو إنه يشترط على أية موافقة مبلغاً من المال ، صار حوله لغط ، و تساؤلات ، وهمس ، وغمر ، ولمز ، الإدارة العامة أجرت تحقيقاً سرياً ، أرسلت له من يدفع له المال ، فقبله ، أرسلت له من يطالبه



كل مصيبة وقعت نتيجة تعنت الإنسان واستكباره عن أن يتوب

بمخالفة للقانون ، فاشترط مبلغ من المال ، بعد غمز ، ولمز ، وتحقيقات ، وإشارات ، ولغظ ، وبعد وفضيحة شاعت ، وبعد تحقيقات دقيقة ومتأنية ، ومديدة ، حتى اجتمعت الأمور ، والمعلومات الدقيقة على أنه ليس مستقيماً ، واجتمع مجلس الإدارة ، وطرح أمر هذا الموظف ، وكان من يدافع عنه ، ومعلوماته غير دقيقة ، والذي أدلى بالمعلومات الدقيقة ، وبالأدلة الدقيقة أيضاً ، فاتخذ قراراً بالأكثرية بكف يده عن العمل ، وكلف أمين السر بكتابة مسودة لهذا القرار ، والقرار وقعت مسودته ، ثم كتب على الكمبيوتر ، ثم وقعت النسخة الأخيرة ، وعممت على كل الدوائر ، وبعدها صدر القرار بكف يده عن العمل .

الآن دقق ، هل كف اليد عن العمل قرار طارئ ؟ لا ، إنه مدروس ، هل هو قرار صدر فجأة ؟ لا ، بل كان قبله في دراسة طويلة .

هذا الكلام أسوقه كي تؤمن معي أن كل مصيبة وقعت ، ليست هذه المصيبة ارتجالية ، ولا مزاجية ، ولا طارئاً ، بل هي مصيبة وقعت لحكمة بالغة ، وبعد دراسة وافية ، وبعد تعنت الإنسان ، وبعد استكباره عن أن يتوب ، وبعد مباهاته بهذا العمل السيئ ، وبعد إجراءات كثيرة تنبيهية ، وبعد تحذيرات ، وبعد أعمال عديدة لحمله على أن يكون صالحاً فلم يصلح ، فاتخذ هذا القرار .

٢ - كل مصيبة بقدر ولحكمة :

إياك أن تظن أن مصيبة كبيرة نزلت بإنسان ، قضية فجائية ، أو قضية مزاجية ، أو قضية طارئة ، الأمر أعقد من هذا بكثير .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾



كل مجتمع غارق في المعاصي هالك عند الله مع وقف التنفيذ

ترى مجتمعاً غارقاً في الربا ، غارقاً في الزنا ، غارقاً في الكذب ، غارقاً في النفاق ، غارقاً في القسوة ، غارقاً في الظلم ، يجب أن تعتقد أن هذا المجتمع هالك عند الله ، لكن متى يأتي الإجراء الذي يجسد هذا الهلاك ؟ لا نعلم . الفكرة دقيقة جداً ، حينما يشرذم الإنسان عن الله ، وحينما يبتعد الإنسان عن ربه ، وعن منهج ربه ، وحينما يبني مجده

على أنقاض الناس ، حينما يبني حياته على موتهم ، حينما يبني عزه على ذلهم ، حينما يبني غناه على فقرهم ، حينما تأخذه العزة بالإثم ، حينما ينصح فلا يقبل ، تقدم له المعلومات الدقيقة التي

لصالحه ، فيرفضها حينما يركب رأسه ، عندئذٍ يصدر قرار من الله عز وجل بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، يأتي التنفيذ بحكمة بالغة وبتقدير كبير .
لذلك :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾

بعد أن صدر القرار بإهلاكها ، الآن بعد حين جاء تنفيذ هذا القرار .
لذلك إخواننا الكرام ، من أدق الأدعية :

((اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدلٌ فيَّ

قضاؤك))

[أحمد عن ابن عمر]

((أعوذ بنور وجهك التي أشرقته له السماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن

تحل بي غضبك ، أو أن تنزل بي سخطك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع

سخط ، لك العتبي حتى ترضى))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فجأة خثرة بالدماع ، شلل ، هذه ليست جاءت فجأة ، أنت توهمتها فجأة ، بل للمعاصي ، والآثام ،
أحياناً طبعاً ، نحن لا نحكم إلا على الظاهر .

٣ - المصيبة إما ردع أو رفع أو دفع أو كشف أو قصم :

إن المصائب أنواع ، لئلا يتوهم أحدكم أن الإنسان إذا أصابته خثرة فهو عاصٍ ، لا ، المعاصي أنواع ، هناك مصيبة دفع ، هذه مصائب المؤمنين ، يدفعه إلى بابه ، هناك مصيبة رفع ، هذه مصائب المتقين ، ليرفع درجته عند الله ، هناك مصائب ردع للعصاة والمذنبين ، هناك مصائب القصم للمجرمين ، مصائب الأنبياء كشفٌ ، فإنهم ينطوون على كمال لا يظهر إلا في ظروف صعبة .

يذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى
الطائف مشياً على قدميه ليدعو أهلها
إلى الإسلام ، ليخرجهم من الظلمات
إلى النور ، ليهديهم إلى سواء السبيل ،
فيكذبونه ، ويسخرون منه ، يغرون
أبناءهم كي يؤذوه ، فيسيل الدم من قدمه
الشريفة ، فيأتيه ملك الجبال ليملكه من
أن ينتقم منهم ، فيقول : لا يا أخي ،



اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، هذه مصيبة ، ولكنها مصيبة كشف .
الأنبياء مصائبهم مصائب كشف لكمالهم ، والمؤمنون مصائبهم دفع إلى بابهِ ، ورفع في مقاماتهم ،
بينما العصاة والمذنبون مصائبهم ردع ، إن كان فيهم بقية خير ، أو قصم إذا كانوا قد شردوا عن
الله شرود البعير .



لكن أحياناً قد يأتي مرض مفاجئ ،
أحياناً إذا كان صاحب هذا المرض
غارقاً في المعاصي والآثام ، والفسق ،
والفجور ، والزنا ، نقول : هذا الذي جاء
من الله هو فجأة نقمته وتحول عافيته ،
سبقة تحذيرات ، وإنذارات ، ودعوة
صامته ، وتأديب تربوي ، وسبقة إكرام
استدراجي ، وسبقته محاولات ، والله عز
وجل حلم عليه ، وأمهه ، وحذره ، فلما

أصر على معصيته ، ونسي ربه ، وشرد عنه شرود البعير جاءت المصيبة .
إذاً : أخطر شيء في الإنسان أن يكون قد صدر قرار من الله بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، هذا فجأة
قد يكون حادث سير أحياناً يشله نصفين ، قد يكون مصيبة تؤدي بماله كله ، على كل نعوذ بالله
من فجأة نقمته ، وتحول عافيته ، وجميع سخطه ، وله العتبي حتى يرضى لكن عافيته أوسع لنا ،
قل هذا الدعاء :

اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أعوذ بنور
وجهك الذي أشرقت له نور السماوات والأرض ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي
سخطك ، أو أن تحل علي غضبك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك وتحول عافيتك ، وجميع سخط ،
ولك العتبة حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي .

((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ،
أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ . أعترف يعني . وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ،
فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))

[البخاري عن شداد بن أوس]

٤ - فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا

إذا :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا ﴾

بياتاً في الليل .

لإنّ الإنسان يأوي إلى فراشه ، يستقر في سريره ، السرير دافئ ، والبيت مريح ، وقد تناول طعام العشاء ، وكل شيء على ما يرام ، فجأة زلزال يجعل عالي المدينة سافها .



وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا

والله سمعت عن إنسان في مدينة عربية أصابها زلزال ، من شدة الخوف الذي ملئ قلوب أهل البيت ، خرجت الأم ،

وحملت وليدها الصغير على صدرها ، وانطلقت إلى الشارع من شدة الخوف نظرت إلى وليدها فإذا هو حذاء زوجها .

﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

(سورة الحج: ٢)



أحيانا المصائب تحدث قوة ودع وأحيانا النعم تحدث محبة الله

أحيانا نستمع إلى الزلازل ، إعصار تسونامي ، ساحل من أجمل سواحل العالم ، يرتاده كبار أغنياء العالم في عيد الميلاد ، البرد شديد بأوريا ، وتلوج ، وكذا في أمريكا ، فيأتون إلى منتجعات من نوع العشر نجوم ، لكنهم رأوا فيها نجوم الظهر ، فقد أتوا إلى بلاد الزنا ، والشذوذ ، والتعري ، إنهم أغنياء العالم ، فجاءهم زلزال تسونامي على قدرهم ،

وأمامنا مشاهد كثيرة ، فقد تجد جزيرة كلها نوادي للعرّة تغرق كلياً .

على كل :

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي

الدين ، لا يمشي لأحد بسوء أحبني ، وأحب من أحبني ، وحبيني إلى خلقي قال : يا ربي إنك

تعلم إني أحبك ، وأحبك من يحبك ، فكيف أحبك إلى خلقك ؟ قال : نكرهم بآلئني ونعمائي وبلائني))

[رواه واين عساكر ، عن ابن عباس]

يجب أن تذهب إلى المستشفى أحياناً ، هذا بلا رجل ، هذا معه مرض جلدي مخيف ، هذا معه فشل كلوي ، هذا معه تشمع كبد ، هذا معه خثرة بالدماغ ، أنت صحيح معافى ، يا رب أتم علينا الصحة .

فأحياناً المصائب مفيدة جداً ، تحدث قوة ردع المصائب ، وأحياناً النعم تحدث محبة الله عز وجل ، وأحياناً الآيات الكونية تحدث شعور بالتعظيم ، فكأن المؤمن يجب أن يعظم ربه أولاً ، وأن يخافه ثانياً ، وأن يحب ثالثاً .

٥ - القرية مكان مثالي للمعيشة :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾

هنا إشارة إلى أن القرية هي المكان المثالي للمعيشة ، وبعض رؤساء الدول الكبرى في أوروبا جمع عددا كبيرا من العلماء في منتجع ، وأقاموا فيه شهراً يجيبوا عن سؤال واحد : لماذا انتشر العنف في العالم ؟ طبعاً الإجابات طويلة ، وأنا ذكرت بعضها في دروس سابقة ، لكن أشاروا عليه بأن التجمعات السكانية الكبيرة يضعف فيها الضبط



الاجتماعي ، أما التجمعات القليلة فالضبط أشد بكثير ، فلذلك اقترحوا عليه ألا تزيد مدينة على ٢٠٠ ألف إنسان ، أما ١٨ مليوناً فشيء مرعب !!! ففي مثل هذه المدينة وحشة ، وأعمال عنف ، وجرائم ، واحتمالات ما لا سبيل إلى وصفه .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا ﴾

هو نائم

﴿ أَوْ هُمْ قَانِلُونَ ﴾

في وقت القيلولة ، يعني تأتي المصيبة فجأة ، يأتي المرض فجأة ، يأتي الزلزال فجأة .

بالمناسبة : سبحان الله !



لحكمة أرادها الله أن الإنسان الذي وصل إلى القمر ، والذي وصلت مركباته إلى المشتري ، والذي نقل الصورة عبر القارات الملونة ، نقل الصوت ، اخترع الغواصات ، اخترع الطائرات ، البوارج ، اخترع أسلحة فتاكة ، لا يستطيع أن يتنبأ بالزلازل ، ولا قبل ثانية واحدة ، مع كل علمه ، بينما الدواب تتنبأ بالزلازل قبل عشرين دقيقة ، لذلك قلما تصاب دابة

بأخطار الزلازل ، قبل عشرين دقيقة تنطلق بعيدة عن مكان الزلازل ، وفي بلدة واحدة في زلزال تسونامي رأوا الحيوانات تعدو مسرعة فقلدتها فنجت .

فقد تأتي المصيبة ليلاً ، وقد تأتي عصراً وقت القيلولة ، لذلك إذا رأى الإنسان أن الله يمهده بالنعمة وهو يعصيه فليحذره ، لا سمح الله ولا قدر أن تصيبه مصيبة .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

(سورة البروج : ١٢)

وترون رأي العين الزلازل ، والفيضانات ، والصواعق ، والحروب الأهلية :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾

(سورة الأنعام الآية : ٦٥)

هذه الصواعق ، ومعها الصواريخ .

﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾

(سورة الأنعام الآية : ٦٥)

هذه الزلازل ، ومعها الألغام .

﴿ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

بَعْضٍ ﴾

(سورة الأنعام الآية : ٦٥)

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾



((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[أخرجه الحكيم وابن لال عن ابن مسعود]

٧ - طاعة الله وقاية من العذاب :

لذلك أنت حينما تطيع الله فأنت في ظل الله ، في رعاية الله ، في توفيق الله ، في حفظ الله ، في ذمة الله .



((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))
((ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل شروق الشمس وقبل غروبها ، أكفيك ما بينهما))

إنسان صلى الفجر في جماعة ، وصلى قيام الليل ، وقرأ قرآن ، وذكر الله ، هذا في النهار في حصن حصين ، في توفيق ، في سداد ، في حكمة ، له هيبة

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾
﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

(سورة الأعراف: ٥)

الإنسان على نفسه بصيرة ، والإقرار سيد الأدلة :

ما معنى هذه الآية ؟ معنى هذه الآية أن الإنسان :

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

(سورة القيامة: ١٥)

﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ

كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾

(سورة الأنعام)



بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره

هذا ذكرني بإنسان كان يتولى الدعاية بالدخان في الشاشات الغربية ، شاب في ريعان الشباب ، يرتدي الكوبوي ، ويركب على حصان ، ويدخن ويقول : تعال إلي حيث النكهة ، هي نكهة الخمر ، لأن معظم الدخان منقوع في الخمر ، هذا قبل أن يموت قال : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني . لذلك :

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾

عند الموت تتكشف كل الحقائق :

أنا أؤكد لكم أن أي إنسان على وجه الأرض من دون استثناء ، من أي دين ، من أي ملة ، من أي طائفة ، من أي مذهب ، ولو كان ملحدًا ، عند الموت تتكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء ، فيقول :

﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾



أليس من دليل أقوى من هذا الدليل ؟
لما أدرك فرعونَ الغرقُ قال :

﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ
بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(سورة يونس : ٩٠)

أي إنسان من الستة آلاف مليون حينما يأتيه الموت يكتشف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، لذلك :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

(سورة ق الآية : ٢٢)

النبي عليه الصلاة والسلام خاطب كفار قريش وهم قتلى فقال :

((يا فلان . بأسمائهم واحداً واحداً . يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، يا عتبة بن ربيعة يا

صفوان بن أمية ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً))

[أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

لقد كذبتُموني وصدقني الناس ،
وأخرجتُموني وآواني الناس .
إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تكون في
خندق معادٍ للدين ، لأنك إذا وقعت في
هذا الخندق هل تعلم من هو الطرف
الآخر ؟ الله رب العالمين ، لذلك الله
عز وجل توعد إنسانين بحرب منه ،
الوعيد الأول في القرآن الكريم ، والثاني
في السنة ، الأول :



﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(سورة البقرة الآية : ٢٧٩)

أكلوا الربا ، وبالسنة :

((من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

إذا :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

خيارك مع الإيمان خيارٌ وقت فقط :

إخواننا الكرام ، خيارك مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض ، مع مليون إلا أن خيارك مع
الإيمان خيار وقت فقط ، إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وتتفتح بإيمانك أو أن تؤمن بعد فوات
الأوان .



مَنْ هُوَ أَكْفَرُ كِفَارِ الْأَرْضِ ؟ فرعون ،
الذي قال :

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾

(سورة النازعات: ٢٤)

والذي قال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

(سورة القصص: ٣٨)

عندما أدركه الغرق قال :

﴿ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾

لذلك البطولة أن تضحك أخيراً لا أن تضحك أولاً ، ثم تبكي كثيراً ، من ضحك أخيراً ضحك كثيراً .

﴿ وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾

(سورة الانشقاق: ٩)

أما الأول ف :

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾

(سورة الانشقاق: ١٣)

كان فاسقا ، قويا ، غنيا ، يدخل إلى بيته فيضحك ضحك الحيوانات أحيانا ، لكن المؤمن يخاف في الدنيا ، فيضحكه الله في الآخرة .

﴿ قَالِيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾

(سورة المطففين: ٣٤)

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

ما هو البأس ؟

ما هو البأس ؟ هو قوة لا تقاوم .

مثلاً : الرشح مرض طارئ لأسبوع ، أحيانا كسر عظم فيجبر ، هناك مئات الأمراض شفاؤها مضمون وسريع ، أما الورم الخبيث فهذا مرض قاضٍ ، فهناك أورام ، واحتشاء ، وخترات بالدماع ، وفشل كلوي ، وتشمع كبد .

فذلك هذا هو البأس ، فهو قوة مدمرة لا تقابل ، ولا تقاوم ، زلزال تسونامي خلف خمسة ملايين متشرد ، و ثلاثمئة ألف قتيل ، ولا في عشر سنوات يمكن أن تقف هذه البلاد على قدميها ، هذا بأس ، فإما كوارث طبيعية ، أو أمراض وبيلة ، أو حروب أهلية كما تسمعون كل يوم .



أقسم لي إنسان التقى بي قبل أيام ، قال لي : بيني وبين أهلي عشرة كيلو مترات ، ومن أشهر مديدة

لم أرهم ، فلو ذهبت إليهم لكنت مقتولاً حتماً ، اشكروا الله عز وجل ، واسألوا الله أن يديم نعم الأمن والسلامة ، وأن يجعل هذا الأمن والسلامة في كل بلاد المسلمين .

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

١ - لا تستطيع خداع كل الناس لكل الوقت :



هذه الفطرة تستطيع أن توهم بعض الناس لأمد طويل بشيء ما ، وبإمكانك أن توهم كل الناس لأمد قصير بشيء ما ، أما أن توهمهم جميعاً لأمد طويل فهذا مستحيل ، أما أن تخدع نفسك ، أو أن تخدع ، أو أن تخدع ربك ولو لثانية واحدة فهذا من رابع المستحيالات،

لا تستطيع خداع كل الناس لكل الوقت

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾

٢ - الإنسان ثلاثة أثلاث :

إخواننا الكرام ، الإنسان فيه ثلاثة أثلاث ، فيه ثلث يعرفه جميع الناس ، مهندس طبيب ، معلم ، طويل ، أبيض ، متزوج ، من سكان دمشق مثلاً ، وثلث ثانٍ لا يعرفه إلا أقرب الناس إليه ، زوجته ، وأولاده ، وجيرانه ، وشريكه في العمل ومن سافر معه ، ومن حاككه بالدرهم والدينار ، أما الثلث الثالث فلا يعله إلا الله ، والمشكلة دائماً في هذا الثلث .

قد يخطب الرجل بنتا فتجده ملاكاً ،
 سبحان الله ! تقول لك : ملك ! بعد حين
 أصبح وحشاً ، كيف انقلب من ملك إلى
 وحش ؟ هذا من الثلث الثالث.
 لذلك إذا أراد الإنسان أن يمدح إنساناً
 فليقل : أظنه صالحاً ، ولا أركي على
 الله أحداً سيدنا الصديق لما ولى سيدنا
 عمر ، قال : >> هذا علمي به ، يا
 رب ، لو سألتني : لم وليته ؟ أقول : يا



الإنسان فيه ثلاث أثلاث

رب ، وليت عليهم أرحمهم ، هذا علمي به ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب << .

كن متادباً مع الله ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب .

لذلك ورد :

((أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن

يكون حبيبك يوماً ما))

[رواه الترمذي والبيهقي ، عن أبي هريرة الطبراني]

أيها الإخوة الكرام ،

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾

(سورة الأعراف: ٦)

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

شبهة مدفوعة في نص هذه الآية :

التوفيق بين آيات إثبات السؤال وآيات عدم إثبات السؤال :

أحياناً يتوهم الإنسان أن في القرآن تناقضا ، يأتيك بقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾

(سورة المعارج: ١٠)

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(سورة القصص: ٧٨)



مرة سألني أخ عن هذه الآية ، قلت له :
إنسان عليه مخالفة سير ، ثم ارتكب
جريمة قتل ، حكم عليه بالإعدام ، وهو
ذاهب ليعدم يقول أحدهم : عليه مخالفة
سير ، لا يحاسبوه عليها ، هذه هو
معنى منها ، لأنه سيعدمونه .

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

(سورة الرحمن: ٣٩)

لكن الله عز وجل يقول : أنا سوف أسأل الذين أرسلت إليهم رسلي ، هل استجابوا ؟ هل صدقوا ؟
هل آمنوا ؟ هل كذبوا ؟ وسأسأل الرسل : هل بلغتموهم ؟ هل طبقتم ما تقولون ؟ المتكلم له حساب ،
تكلمت ، هل أنت مطبق لما قلت ؟ ألا تستحي مني ؟ ألا تستحي أن تقول شيئاً أنت لا تفعله ؟.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

(سورة الصف: ٣)

فالمتكلم يُسأل له حساب ، والمستمع يُسأل ، هل طبقت الذي سمعت ، أم ماذا كنت تعمل ؟ .
أيها الإخوة الكرام ، الكفار في عهد النبي كانوا كفاراً ، وكانوا وقحين ، فلو رأوا في القرآن تناقضاً لما
سكتوا ، ولكنهم كانوا عرباً ، وكانت لغتهم عربية ويعرفون آثار العربية .

بين السبب والفاعل :

حتى أوضح لكم هذا أضرب مثلاً :

أحياناً تقول : هذا الطالب رسب في صفه ، ماذا تريد أن تقول ؟ كان كسولاً فاستحق الرسوب ،
والذي جعله يرسله كسله فقط ، لو قلت بعد حين : إن إدارة المدرسة رسبته في الصف ، ماذا تقصد
؟ اتخاذ القرار بترسيبه ، إعطائه جلاء الراسب ، هذا قرار يحتاج إلى منفذ ، فإذا عزوت الرسوب
إلى الطالب فهو السبب ، وإذا عزوته إلى الإدارة فهي الفاعلة ، ولا تناقض بين الأمرين ، أنت قد
تقول : هناك تناقض يا أخي ، فمرة قلت : الطالب رسب ، مرة قلت : الأستاذ رسبه ، لا تناقض أبداً
، إذا عزوت الرسوب إلى الطالب ، أي بسبب كسله رسب ، وإذا عزوت الرسوب إلى المدير ، معنى
ذلك أنه اتخذ قراراً بترسيبه .

أحياناً تعزى المصيبة إلى الإنسان .
﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ
أَيْدِيَكُمْ ﴾

(سورة الشورى الآية : ٣٠)

أنتم السبب ، وفي آية :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾

(سورة النساء الآية : ٧٩)



من الله فعلاً ، لكن من الإنسان سبباً ، فإذا كان الرجل عربياً يتقن هذه اللغة فما عنده مشكلة أبداً ، هناك تنوع في العبارة ، أحياناً نقصد الفاعل ، وأحياناً نقصد المتسبب ، أما كفار قريش فلو رأوا تناقضاً لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها على النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول لك : أخذ بنتا عمرها ١٣ سنة ، هذا شيء ضمن العادات والتقاليد هناك ، ليس معنى هذا أنه تزوجها في هذه السن ، كان كبراء الأمة الناس يتقربون إليهم بتزوج بناتهم ، هو لم يقاربها إلا بعد أن بلغت ، لو كان في هذا الزواج مأخذاً لأقام المشركون الدنيا ولم يقعدوها عليه ، فقد تكون بعيداً عن العادات والتقاليد .



الآن مثلاً : من يستطيع أن يخاطب إنساناً كبيراً ، ويقول عنه : إنه جرثومة ؟ لا يستطيع ، أما أن يأتي شاعر كبير كأبي تمام ليخاطب المعتصم من أكبر خلفاء بني العباس ويقول له : أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب

معنى الجرثومة وقتها أصل الشيء ، ما الآن الجرثومة معناها أصل المرض ،

أي أنك علة المرض ، فالكلمة لها معاني عديدة .

حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك))

[أخرجه البخاري من حديث ابن عباس]

العصابة جماعة الخير كان معناها سابقاً ، الآن المعنى : مجموعة لصوص وعصابة ، اختلف المعنى ، استعمار ، كلمة رائعة :

﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(سورة هود الآية : ٦١)

أما الآن فهناك قوى غاشمة تنهب الثروات ، تقتل الناس ، كلمة استعمار بغيضة الآن ، أما أصلها فرائع ، فالإنسان لضعفه باللغة ، ولعدم اهتمامه بتطور الألفاظ قد لا يفهم بعض الآيات ، وقد يرى فيها بعض التناقض .

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

(سورة الأعراف: ٧)

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

أعمالهم ، الآن أحدث طريقة في التحقيق أن تريبه الصورة ، فتسكته :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾

(سورة طه: ٤٦)

الله معنا .

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

(سورة الحديد الآية : ٤)

ومع المؤمنين بالتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، والحفظ .

وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ٨)

والحمد لله رب العالمين